الحجامون والفصـــادون
نماذج من صورهم على الآثار العربية

الدكتور صلاح حسين العبيدي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

لعب أصحاب الحرف والمهن دورا بارزا في الحياة العربية الاسلامية من خلال ما قدموه من جهود وخدمات في مختلف الميادين ، وفي شتى المجالات فكان منهم الحمال والفلاح والحجام والنساج والزجاج والملاح والصفار والحائك وغيرهم .

وقد سبق ان قدمنا دراسة لشخصيتين حرفيتين هما « الحمال »[1] و « الفلاح »* وقد اخترت هذه المرة الكلام عن الحجام والفصاد ، مؤملا ان اتناول بقية أصحاب الحرف في أبحاث قادمة .

وقد استهوتنا هذه الشخصية الشعبية التي بقيت مع غيرها بعيدة عن متناول الباحثين والدارسين في الاثار العربية .

ومن هنا رأيت ان اتعرض لهذا الموضوع . أما معلوماتنا عن مهنة الحجامة أو الفصد وأصحابها فقد استقيناها من مصدرين ، المصدر الاول هو ما جاء في المراجع التاريخية . أما المصدر الثاني فهو ما جاء في المخطوطات العربية الاثرية .

---

١ ـ انظر مجلة كلية الاداب (جامعة بغداد) المجلد الاول العدد (٢١) سنة ١٩٧٧ ـ ص ٥٢٥ـ٥٣٩ .

(*) انظر ايضا العدد (٢٤) من المجلة المذكورة ص ٣٦٧ ـ ٣٩٤ .

ويجدر بنا ان نعرف شيئا عن الحجامة والفصد قبل ان تتناول اصحابها .
الحجامة هي المداواة والمعالجة باداة أشبه بالكأس ، يقال له المحجم يوضع على الجلد فيحدث فيه تهيجا ويجذب الدم أو المادة بقوة[٢] .

ويفهم من قول لابن القف[٣] « ان التحجم عند الاطباء على نوعين بشرط وبلا شرط والتي بغير شرط على نوعين بنار وبغير نار ، فالمادة الدموية المراد اخراجها لا تخلو ، أما ان تكون مستولية على الظاهر أو على الباطن أو عليهما أو فيما بينهما فأن كان الاول فاخراجها بالحجامة وان كان الثاني والثالث فاخراجها بالفصد وان كان الرابع فبالعلق » .

وقد أفادنا ابن القف[٤] نفسه « بأن الحجامة على نوعين ضرورية واختيارية والاولى هي المستعملة عند الحاجة والثانية لها شروط عشرة ، احدها ان يكون استعمالها في وسط الشهر ، فأن الاخلاط في هذا الوقت تكون ثائرة هائجة وثانيهما ان يكون استعمالها في الزمان المذكور في الثالثة من النهار ، وثالثها ان يكون استعمالها في زمان الصيف ، ورابعها ان يكون استعمالها فيمن كان دمه رقيقا وخامسها ان تشغل المعدة قبل استعمالها بشيء من الاشربة المقوية لها ، وسادسها ان يتجنب استعمالها فيما كان متخلخل البنية لكثرة ما يتحلل من بدنه ، وسابعها ان يتجنب استعمالها قبل سنتين وبعد ستين سنة وذلك لاستيلاء الغلظ على المادة في الوقتين المذكورين ، وثامنها ان يتجنب استعمالها عقيب الحمام ، وذلك لان الحمام يغلظ الجلد ويحوج الى شرط عميق لاخراج الدم ، وتاسعها ان يتجنب استعمالها عقيب الجماع ، وعاشرها ان يتجنب استعمالها عقيب الحركة المفرطة خوفا من فرط التحليل وضعف القوة » .

---

٢ ـ انظر ابن ابي اصيبعة ـ موفق الدين ابو العباس الخزرجي ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ ص ٥٦ هامش رقم (٤) .

٣ ـ ابن القف ـ ابي الفرج بن موفق :
كتاب العمدة في الجراحة ، ط ١ حيدر اباد بالدكن ـ جـ١ ص١٧٥ .

٤ ـ المصدر السابق ، جـ١ ص١٧٦ .

ويستطرد في الموضوع نفسه قائلا « انه ينبغي ان يراعى في الضرورية والاختيارية امور ثلاثة . أحدهما مقدار الشرط ، وهو أن يجعل عدده وعمقه بحسب مقدار المادة وقوامها ، وهو انه متى كان المقدار متوفرا والقوام غليظا فينبغي ان يجعل الشرط كثير العدد عميقا ، ومتى كان العكس فبالعكس ، وثانيهما ان يدلك الموضع قبل الشرط ويعلق المحاجم عليه بغير شرط مرات لتنجذب المواد اخراجها اليه وثالثها ان يتجنب بعدها الامتلاء من الغذاء[٥] ».

اما بصدد الفصد فانه يذكر بأنه تفرق ارادي خاص بالاوردة بآلة مخصوصة[٦] .والعروق المفصودة على نوعين ، الشرايينأو ما تسمىبالعروق الضوارب والاوردة أو ما تسمى بالعروق غير الضوارب ، وفي فصد الشرايين خطر من وجهين أحدهما جرها وثانيهما ان الدم الذي تحويه الغالب عليه الجوهر الروحي لا المادة المريضة .

أما الاوردة فقد حصرت في اربعة وثلاثين في الرأس منها اثنى عشر ،وفي اليدين اثنا عشر وفي البطن عرقان ، وفي الرجلين ثمانية عروق وفي كل رجل أربعة[٧] .

وكما للحجامة شروط فأن للفصد شروط أيضا يذكرها ابن القف[٨] « بانها يجب التقيد بها وتطبيقها بشكل دقيق بالنسبة للفاصد والمفتصد ، فعلى الفاصد ان يكون عارفا بالتشريح ليعرف مسالك الاوردة واوضاعها وما يجاورها وان لا يفصد في مكان مظلم ليدرك العرق ويعرف كيف يضع المبضع ، وان يتعاهد تنقية دماغه ثم بصره بالاكحال ان احتاج اليها ، وان

---

٥ ـ المصدر السابق ، جـ١ ص١٧٦ .
٦ ـ المصدر السابق ، جـ١ ص١٦٧ .
٧ ـ المصدر السابق ، جـ١ ص١٦٥ .
٨ ـ المصدر السابق ، جـ١ ص١٦٧ـ١٦٨ .

لا يقدم على فصد صبي ولا على شيخ كبير ولا على طامث الا بأذن أقاربها ولا على مملوك الا بأذن مولاه ولا على محبوس الا بأذن ولي امره ولا على من كانت معدته ضعيفة وكذلك كبده ولا على من كان مستعدا لانطلاق البطن والامراض رطبة ساذجة أو مادية ، وان يوسع الفصد في زمان الشتاء ، وعند كون السمنة مستحصفة والمواد غليظة ويضيقه في الصيف ، وان يكون مبضعه نقيا من الصدأ أو النمش ، وان يطيل زمان حبسه للعرق ، وان يديم تدليك العضد ويأمر المفصود بمسك شيء ثقيل ليظهر العرق وان يفصد العروق المفصلية طولا ان اراد تأخر التحامها وعرضا ان اريد تشفيها بسرعة وان يشد العضد بعصابة معتدلة العرض دقيقة ، واما اعتدال العصابة فأن الدقيقة تجر العضد وتؤلمه والعريضة لم يتمكن الشد بها ، وان لا ينظر الى وجه امرأة عند فصدها ولا يطيل زمان حبس عضدها وزندها ، وان يكون لطيف الانامل لا يعمل بها اعمالا خشنة وان يكون معه أدوية مهيأة لقطع الدم وان يكون دينا في دينه طاهرا في ذيله » .

أما عن أصحاب هذه المهنة فهم الحجامون والفصادون ، فالحجام كما جاء في لسان العرب[٩] « المصاص » ، يقال للحجام حجام لامتصاصه فم المحجمة والمحجم بالكسر الآلة التي يجمع فيها دم الحجامة عند المص » .

ومهنة الحجامة أو الفصد كانت معروفة منذ أقدم العصور ولكن كيفية معرفة الانسان لهذه المهنة لا تزال حتى اليوم يلفها الغموض ، والسبيل الى معرفة هذا الغموض جد عسير بل يكاد يكون مستحيلا ، فلسنا نعرف على وجه اليقين كيف اهتدى الانسان الى معرفة هذه الحرفة واين كان ذلك ومتى.

---

٩ – ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم :
لسان العرب ، جـ١٢ ص١١٧ .

ومع ذلك فأن الاشارات الى وجود تأليف في هذا الحقل قد وصلت الينا ، حيث يذكر ان ابيوقراط[١٠] ألف كتابا في الفصد وان جالينوس وضع كتابا يتعلق بهذا الحقل ايضا[١١] .

وعرف العرب الحجامة والفصد في الجاهلية ، وجاء في شعرهم انهم كانوا يفصدون النوق لكي يحصلوا على دمها وقد ذكرت قصص متعددة حول دم الفصيد الذي كان يقدم طعاما للضيف بعد ان يجفف داخل امعاء الناقة ويشوى ويعد تقديمه للضيف من قبيل تكريمه[١٢] لان الدم كان مقدسا لديهم ، لذلك جرى تحريم عادة فصد الناقة في الاسلام[١٣] ، قال حاتم طي[١٤] يستنكر فصد الناقة ويدعو الى نحرها لا الى فصدها :

كذلك فصدى ان سألت مطيتي
دم الجوف اذ كل الفصاد وخيم

وقال ايضا[١٥] :

لا افصد الناقة من انفها
لكنني اجزها العالية

١٠ــ ابن ابي اصيبعة ــ المصدر السابق ــ ص٥٦ .

١١ــ المصدر السابق ص١٤٣ ، ١٤٨ ، ومن الجدير بالذكر ان جالينوس يذكر عن نفسه (ص ١٢٥ ــ ١٢٦) انه قصد مرتين .

١٢ــ ابن منظور : لسان العرب جـ٣ ص٣٣٦ .

١٣ــ ورد في القرآن الكريم قوله تعالى « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع الا ما زكيتم وما ذبح على النصب ... » .
الاية ٣ سورة المائدة

١٤ــ الاصفهاني ــ ابو الفرج علي بن الحسين
الاغاني : ٣٩١/١٧ وانظر البياتي عادل ــ كتاب ايام العرب قبل الاسلام لابي عبيدة ص٣٠٢ .

١٥ــ ابن الاثير ــ ابو الحسن علي بن محمد .
الكامل في التاريخ ٣٦٩/١ وانظر البياتي ــ المصدر السابق ص٣٠٣ .

وقال عارف الطائي[١٦] :

وقد يترك الغدر الفتى وطعـامه
اذ هو امسى جله من دم الفصـد

وقال زهير بن ابي سلمى في معلقته[١٧] وقد ذكر آلة الحجامة :

ينجمهـا قـوم لقـوم غرامـة
ولم يهريقـوا بينهـم ملء محجم

فالعربي في الجاهلية عرف فصد الناقة واهتدى الى هذه المهنة (الحجامة) بالنسبة للانسان ويؤيد ذلك وجودها في صدر الاسلام وورودها في الاحاديث النبوية الشريفة ، والا فليس معقولا ان تكون هذه المهنة قد انبثقت فجأة في صدر الاسلام دون ان يكون لها جذور في الجاهلية ، فمما روى عن الرسـول (ص) انه قال خير ما تداويتم به الحجامة والشونيز والقسط[١٨] ، وروى ابن عباس : احتجم النبي (ص) في رأسه من أذى كان به[١٩] .

وكذلك جاء ذكر الحجام في العصر الاموي ، فقد نقل الينا صـاحب كتاب الوزراء[٢٠] طريفة وقعت لحجام مع الحجاج بن يوسف الثقفي قـال : « القاضي ابو علي التنوخي قلت لابي الحسين بن هشـام فهـل تعرف خبر الحجام مع الحجاج ؟ قال نعم بلغنا ان الحجاج احتجم ذات يوم ، فلما ركب

١٦ـ نقائض جرير والفرزدق ١٠٨٣/ الاغاني : ١٢٨/١٩ .

١٧ـ الزوزني .
شرح المعلقات السبع .

١٨ـ الشريشي ـ ابي العباس احمد بن عبدالمؤمن :
شرح مقامات الحريري جـ٤ ص٢٠٨ . والقسط عود يجاء به من الهند يجعل في الدواء والبخور .

١٩ـ ابن عبد ربه .
العقد الفريد جـ٦ ص ٢٧٥ .

٢٠ـ الصابي : ابي الحسن الهلالي بن المحسن :
الوزراء ص١٢١ـ١٢٢ .

المحاجم على رقبته قال له : احب ايها الامير ان تخبرني بخبرك مع ابن الاشعث، كيف عصا عليك ، فقال له لهذا الحديث وقت اخر ، واذا فرغت من شأنك حدثتك ، فاعاد فسأله وكررها والحجاج يدفعه ويعده ويحلف له على الوفاء له ، فلما فرغ احضر الحجام وقال له انا وعدناك بأن نحدثك حديث ابن الاشعث معنا ، وحلفنا لك ونحن محدثوك يا غلام السياط فاتى بها فامر الحجاج فجرد وعلته السياط واقبل الحجاج يقص عليه قصة ابن الاشعث باطول حديث فلما فرغ استوفى الحجام خمسمائة سوط فكاد يتلف » .

ويفهم من هذه الرواية ان الحجام شخص كثير الكلام يتدخل في امور لا تعنيه وهي صفة من الصفات التي اتصف بها الحجامون على مر العصور ، مع ان المهنة تقتضي منه الصمت وتجميع الذهن في مهنته لخطورتها وان المحجوم في حالة نفسية لا تسمح له بالحديث والانبساط فيه ، وتدلنا هذه الرواية أيضا على ان مكان الحجامة يكون في أغلب الاحيان في رقبة المحجوم ويؤكد الشعراء في شعرهم هذه القاعدة فقد جاء على لسان أحد الشعراء[٢١] قوله :

وحاجم في الكأس اجرى دما
من ساق ساقينا باشفاق
لكنه خالف في شرطه
وحكم الكأس على الساق

وذكر اسم الحجام في هذين البيتين كان الشاعر يقصد توريه في ذلك بأن مكان الحجامة يكون في رقبة المحجوم ، بينما هنا خالف مكان الحجامة ووضع الكأس على الساق بدلا من ان يضعه على الرقبة .

٢١ـ خزانة الادب وغاية الارب ـ مكتبة البيان ودار القاموس الحديث للطباعة والنشر بيروت ص ٣٣٢ .

اما في العصر العباسي فقد لعبت هذه الطائفة من الحرفيين دورا بارزا ، في حياة المجتمع العباسي ما جعل اسمهم يتردد على السنة المؤرخين والشعراء وكان حظ أصحاب هذه الحرفة من هؤلاء مختلفا ، فقد نظر البعض ممن عرفوا بالعلم والفقه والمعرفة الى هذه الحرفة واصحابها نظرة تقدير واحترام ، وقد تكون نظرة هؤلاء العلماء والفقهاء متأتية من كونهم يدركون ان هذه المهنة لم تخرج الى الوجود الا لحاجة اساسية طبية تتعلق بحياة الناس وصحتهم ، اما ما يرافق المهنة من سلبيات فهم لا يفرطون بحاجة الناس بسبب ذلك وانما هذا حكم اخر ومن هنا يأتي تثمين هؤلاء العلماء لها وفعلا ظهر للحجامة أثر طبي واضح يمر بنا بعد قليل .

وقد اعتبر بعضهم وجود هذه المهنة من الضرورات الاجتماعية[٢٢] بل ذهب الغزالي الى أبعد من ذلك حين جعل وجودها من فروض الكفايات فهو يقول « فلا تعجب من قولنا ان الطب والحساب من فروض الكفايات ، فأن اصول الصناعات ايضا من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة فانه لو خلا البلد من حجام تسارع الهلاك اليهم وحرجوا بتعريض انفسهم للهلاك[٢٣] » .

لقد نشطت مهنة الحجامة في العصر العباسي ومما يدل على نشاطها كثرة عدد الحجامين الذين اخذوا ينتشرون في ارجاء الدولة العباسية وقد قدر ابن

٢٢ــ اخوان الصفاء : رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء جـ١ ص ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ . (بيروت ١٣٦٧هـ ــ ١٩٥٧ م) .

٢٣ــ احياء علوم الدين ــ مطبعة احمد البابي الحلبي ــ القاهرة ١٢٩٦ هـ ــ جـ١ ص٢٣ . وأنظر كتاب العامة في القرن الخامس ص ٥٦ لمؤلفه بدري محمد فهد .

الفقيه عدد الحجامين وأصحاب الحمامات في بغداد بثلثمائة الف وستين الف حمامي وحجام[٢٤] .

وعلى الرغم مما في هذا القول من مبالغة فانه يعكس لنا حقيقة واضحة وهو ايمان الناس بالحجامة والحجامين . ولم تقتصر النظرة الى اهمية الحجام على اناس معدودين بل عمت المجتمع العباسي كله ، فقد كان الخلفاء في طليعة من آمن بمهنة الحجامة وجدواها وكذلك الحكام ورجال الدولة وعامة الناس وعرف عن الرشيد انه كان يفصد في كل عام مرتين ، وكان جبرائيل بن بختيشوع طبيبه يتقاضى من الخليفة (١٠٠ر٠٠٠) مائة الف درهم عن هذه العملية[٢٥] .

وجاء أيضا انه عرض للوزير ـ يحي بن القاسم المغربي قولنج صعب أقام لاجله في الحمام واحتقن بعده حقن وشرب عدة مرات فلم ير صلاحا فانفذ رسولا الى المتطبب ـ صاعد بن بشر بن عبدوس ـ فلما رآه على هذه الحال ، استدعى فاصدا ففصده واخرج له دما كثير المقدار وسقاه ماء البزور ولعابا وسكنجبيلا ونقله من حجرة الحمام الى الخيش .. فبرأ برا تاما[٢٦] .

٢٤ـ ابن الفقيه ابو بكر أحمد بن محمد بن اسحق الهمذاني ـ من كتاب البلدان ـ مخطوطة مصورة عن مخطوط مشهد ـ نشرها اوثارفار لامونيج تكيتيشفيلي حول تاريخ مدينة بغداد .
وانظر الشيخلي : صباح ابراهيم سعيد :
الاصناف في العصر العباسي ص٨٩ .

٢٥ـ القفطي ـ جمال الدين ابي الحسن بن يوسف :
تاريخ الحكماء ـ مكتبة المثنى ببغداد ـ مؤسسة الخانجي ص١٢٣ .
وانظر : البدري ـ عبداللطيف :
الفصد في الطب القديم ص٩٢ .

٢٦ـ ابن ابي اصيبعة ـ المصدر السابق ص٣١٣ـ٣١٤ .
وانظر البدري ـ المصدر السابق ص٩٢ .

وبلغ من اهتمام العباسيين بالاحتجام ان جعلوا له عيدا خاصا مثل بقية الاعياد (اطلقوا عليه عيد الاحتجام) وفيه يهدى أصحاب المحتجم له الهدايا ويعمل اجود الطعام[٢٧] .

كما كانت الهدايا تقدم في الايام الاعتيادية الى الخلفاء العباسيين وغيرهم في مناسبات الاحتجام والفصد ويأتي ذلك من قبيل الابتهاج بالشفاء من هذه العملية الصغرى التي تعتبر في نظرهم مهمة جداً ، وهذه الهدايا هي نوع من التهنئة بنجاح هذه العملية كما نفعل نحن اليوم في مثل هذه المناسبات فقد روي ان اليزيدي اهدى الى الرشيد يوم فصد جام بلور وشمامات غالية[٢٨] . وان ابراهيم بن المهدي اهدى المأمون عندما فصد جارية معها عود ورقعة فيها بيتين من الشعر[٢٩] .

وفي مرة ثانية اهدت اليه « رباح » اترجة عنبر عليها مكتوب بماء الذهب بيتين من الشعر فامر لها بمال كثير[٣٠] .

وقيل ان المعتصم افتصد مرة فاهدت اليه « شمائل » صينية عقيق عليها قدح اسبل عليهما منديل مطيب مكتوب عليه بالعنبر في كل ربع منه بيت شعر[٣١] . وذكر ايضا ان المعتصم اعتل يوما فاشار عليه بختيشوع بالفصد فاخرجت اليه هدايا الفصد وكان فيما اخرج طبق صندل مكتوب عليه بجزع كما يدور عليه شمامات مسك وعنبر[٣٢] .

٢٧ـ متز : ادم :
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري
(دار الكتاب العربي ـ بيروت) ص ٣٠١ .

٢٨ ـ الجاحظ : المحاسن والاضداد (ط١ ـ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤هـ) ص١٤٥ .

٢٩ـ المصدر السابق ص٢٤٤ .

٣٠ـ المصدر السابق ص٢٤٦ .

٣١ـ المصدر السابق ص٦٤٥ .

٣٢ـ المصدر السابق ص٢٤٦ .

ولعل من اطرف ما وصلنا من هدايا الفصد ، هي الهدية التي قدمها ابي دلف الى عبدالله بن طاهر يوم فصد فقد جمع أبو دلف جميع ما اصاب في السوق من الورد وارسله هدية له[٣٣] .

وازاء ما تقدم فقد وجدت نظرة أخرى حاول اصحابها النيل من الحجامين والفصادين ، فالبعض ينظر الى مهرة الصناع على انهم من طبقة السوقة ، اسوة باللصوص[٣٤] ، بينما يضع الدمشقي[٣٥] مهرة الصناع وارباب الحرف في ادنى طبقات الناس ، اما الشريشي[٣٦] فقد عكس تصوره لهم بانهم من ارذال الناس وسفلتهم ، وورد من أقوالهم اربعة كانت في سفل بني اسرائيل وصارت في سفل العبيد وستكون في سفل الاحرار الحياكة والحجامة والدباغة والكناسة .

ومن الصفات التي الصقت بالحجام بانه فضولي كثير الكلام حتى عدوا هذه الصفة وقفا على أهل الحجامة[٣٧] .

ومن صفات الحجامين الاخرى اللؤم الذي من معانيه البخل قال المتنبي[٣٨] يهجو كافور الاخشيدي :

من اية الطرق يأتي نحوك الكرم
اين المحاجم يا كافور والجلم

٣٣ـ المصدر السابق ص٢٤٦ .

٣٤ـ جروينبام : جوستاف
حضارة الاسلام ـ ترجمة عبدالعزيز جاويد ـ القاهرة ١٩٥٦م ص٢٧٤ .

٣٥ـ الدمشقي ـ أبو الفضل جعفر بن علي :
الاشارة الى محاسن التجارة ـ مطبعة المؤيد بدمشق جـ١ ص ١٦٤ .

٣٦ـ الشريشي ـ المصدر السابق طـ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

٣٧ـ المصدر السابق جـ٤ ص٢٢٤ .

٣٨ـ شرح ديوان المتنبي (جـ٤ ص ٢٨٠) . وضعه عبدالرحمن البرقوقي .
الناشر دار الكتاب العربي . بيروت .

وبيت المتنبي هذا يدلنا على حقيقة مفادها ان مهنة الحجامة كان يعاب عليها صاحبها بانه لم يكن كريما فكأنما قال له انك بخيل ولئيم لانك حجام.

وليست هذه الصور هي كل ما ورثناه عن صفات الحجامين ، فنحن نقرأ مثلا ان الحجام كان يتصف بالفقر حتى صارت هذه الصفة مضرب الامثال فكان يقال (افرغ من حجام ساباط) .

ولهذا المثل قصة اوردها الميداني[٣٩] مفادها ان أحد الحجامين كان يلازم ساباط المدائن يحجم الجند بدانق نسيئة وربما مرت عليه برهة لا يقربه فيها أحد فكان يبرز امه عند تمادي عطلته فيحجمها لكيلا يقرع بالبطالة فما زال يحجمها حتى نزف دمها وماتت فصار مثلا ، قال الشاعر :

مطبخه قفر وطباخه ... افرغ من حجام ساباط

واورد لنا أبو هلال[٤٠] العسكري ابياتا من الشعر وفيها ما يشير الى صفة الفقر التي كانت تلازم الحجامين :

اذا كان مال من ينطق العجم ... وحالي فيكم حال من حاك أو حجم
فاين انتفاعي بالاصالة والحجي ... من العلم والحكم
وهل احد في الناس يبصر حالتي ... ولا يعلن القرطاس والحبر والقلم

ان مهنة الحجامة بحد ذاتها ليست مصدرا لتدر ربحا كبيرا ، فهي من المهن الشعبية ذات الدخل المحدود مثلما يكون العامل والفلاح في ذلك المجتمع فقيرا يكون الحجام ومن على شاكلته فقيرا أيضا .

٣٩ـ الميداني : مجمع الامثال جـ٢ ص٨٦ .

٤٠ـ العسكري : أبو هلال .
الاوائل (طبع المغرب) ص٥ ويراجع ديوانه .

ان مثل هذه الاحكام القاسية بشأن الحجام والفصاد نقف منها في كثير من التحفظ لانها جاءت مطلقة وغير معززة بالادلة التي يعتمدها الباحث في هذا المجال ولم يكن هؤلاء المؤرخون منصفين مع هذه الطبقة من الناس لانهم بينوا المظاهر السلبية التي اتصف بها الحجامون دون ان يبينوا لنا النواحي الايجابية فيهم ، وربما كانت هذه الصفات التي الصقت بالحجامين تعود الى غياب الضوابط التي تحكم عملهم مما فسح المجال لغير المختصين بهذه المهنة ان ينتظموا فيها ويدعوا امتهانهم لهذه الحرفة فأساءوا الى سمعتها نتيجة لجهلهم بممارستها ولدينا ما يشير الى وجود أمثال هؤلاء المدعين فقد (جاء ان صلاح الدين دخل دمشق وخرج يودع الحاج ، ثم رجع فحمّ ففصده من لا خبرة عنده فخارت القوة ومات قبل الرابع عشر ووجد الناس عليه شبيها بما يجدونه على الانبياء)[٤١] ومن الذين ماتوا بالفصد الخليفة العباسي القائم بامر الله فقد ذكر السيوطي[٤٢] ان الخليفة المذكور (افتصد ونام فانحل موضع الفصد وخرج منه دم كثير فاستيقظ وقد انحلت قوته ثم توفي) .

اضف الى ذلك سببا اخر ، وهو ان الحجامين بحكم مهنتهم وتنقلهم بين البيوت واحتكاكهم بالاسر المتباينة ربما كانوا مدعاة لتسرب اخبار شخصية لتلك الاسر مما جعل الناس ينظرون اليهم بعدم الثقة والاطمئنان والاحتقار احيانا .

وافادتنا بعض الابيات الشعرية بتعليل اخر للسبب الذي غض من مكانة الحجام فهي تتضمن ذما لشخص يقول له الشاعر فيها انك لست مؤهلا لان تكون فارسا بل انك حجام ، قال الشاعر[٤٣] :

٤١ـ ابن ابي اصيبعة ـ عيون الابناء ص٦٨٨ .

٤٢ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء والمؤمنين (المطبعة المنيرية) ص ٢٩٧ .

٤٣ـ العسكري : هلال : كتاب التلخيص في معرفة اسماء الاشياء (جزءان) تحقيق : د . عزت النصر ـ دمشق ١٣٨٩هـ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ج٢ ص٧٢٧ .

احق بذاك من سيفي محلى
ومن فرس يحمحم في اللجام

وقد افادنا الشعر في التعرف على بعض الامور التي تتعلق بالحجامة قال الشاعر(٤٤) :

لانت بجونه وبمشرطها وبالجلمين والموسى الهذام
وقرز فيه كرسفه ودهن تطوف به وتصرخ في الانام

والبيتان المتقدمان يوضحان بعض الحقائق التي تتعلق بهذه المهنة فهي عددت لنا مثلا الادوات التي يستعين بها الحجام في مهنته فذكرت لنا الجونة والمشرط والجلم والموسى والقرز والكرسفة والدهن .

ومن أدوات الحجامين الاخرى الفامة المحجمة وربما سميت المحاجم الملازم والملاحج والتشريح جونة الحجام(٤٥) .

وكثرا ما يطلب المحجومون من الحجامين طلبات معينة وتؤدي تلك الطلبات احيانا الى استغاظة الحاجم وتدل هذه الطلبات على الاحتراس وعدم الثقة بالحجام نفسه ، وبادواته التي يشك المحجوم احيانا بنظافتها وأنها لا تسبب له العدوى بالامراض لان هذه الادوات تستعمل في حجامةأشخاص كثيرين وان عدم العناية بتعقيمها وتنظيفها ربما تسبب دون شك من حصول مضاعفات كثيرة قد تؤدي في بعض الاحيان بحياة المحجومين . ويذكر التوحيدي ان أبا علقمة دعا بحجام فقال له : انق غسل المحاجم واشدد قضيب الملازم ، وارهف ظبات المشارط واسرع الوضع وعجل النزع وليكن شرطك وخزا ومصك نهزا ولا تردن اتيا ولا تكرهن ابيا ، فوضع الحجام محاجمه في جونته ومضى عنه(٤٦) .

٤٤ـ العسكري ـ المصدر السابق جـ٢ ص٧٢٧ والجلم معروف ـ جلمت الشعر اذا اخذته بالحلم . والقرز ما يجعل فيه الدهن .

٤٥ـ المصدر السابق جـ٢ ص٧٢٧ .

٤٦ـ التوحيدي : ابو حيان .
الامتاع والمؤانسة ـ تحقيق احمد امين واحمد الزين ـ مطبعة لجنة التاليفذ والنشر ـ القاهرة ١٩٧٣هـ ـ ١٩٥٧م ـ جـ٢ ص٢٨٤ .

ولم تقتصر مهنة الحجام على حجم المرضى بل شملت كذلك اعمال الحلاقة أيضا[٤٧] . ويذكر انه كان في مكة في القرن الخامس الهجري اسواقا فيها عشرون دكانا متقابلة يشغلها جميعا حجامون لحلق شعر الرأس[٤٨] وكثيرا ما كان الحجامون يتواجدون في الحمامات لهذا الغرض .

لقد كان التعاون قائما بين أصحاب هذه المهنة فقد ورد الينا عن شيخ حجام انه رفض أن يأخذ اجرة حجامته من حجام لانهم « أهل صناعة واحدة وهم لا يأخذون من أهل صناعتهم اجرة ابدا[٤٩] »ولا تزال هذه العادة جارية بين أصحاب الحرف والمهن الى وقتنا الحاضر .

وقد وصلت الينا اخبار تدل على اعتزاز أهل المهنة بمهنتهم ويبلغ هذا الاعتزاز في بعض الاحيان الى تعصب أرباب المهنة الواحدة ضد غيرهم، فالحائك اذا رأى تقصيرا من صاحبه أو سوء حذق أو خرقا قال له : يا حجام ، والحجام اذا رأى تقصيرا من صاحبه قال له يا حائك[٥٠] .

ومن مظاهر التعصب لدى هذه الطائفة من الحرفيين انتظامهم فيما يسمى بالنقابات اسوة بارباب الحرف الاخرى وكانت تجتمع عند قبر سلمان الفارسي في المدائن نقابات الحلاقين ، والمشاطين والحجامين وذلك في منتصف القرن الثالث الهجري[٥١] .

٤٧ـ الشريشي ـ شرح مقامات الحريري ج٤ ص٢٢٣ .

٤٨ـ الشيخلي : صباح ـ المصدر السابق ص ٧٦ .

٤٩ـ المصدر السابق ـ ص ١٤٤ .

٥٠ـ الجاحظ : ابو عثمان عمر بن بحر :
رسائل الجاحظ : تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م ـ ص١٢٦ـ١٢٧)
وانظر الشيخلي : المصدر السابق ص١٣٢ـ١٣٣ .

٥١ـ الشيخلي : المصدر السابق ص٦١ .

ولم تقتصر مهنة الحجامة على الرجال فقط بل شاركت في ذلك النساء أيضا فقد وصل الينا ما يفيد ان بعض النسوة مارسن هذه المهنة[٥٢] .

وقد عثر على رسوم للحجام على بعض الاثار العربية الاسلامية التي تعود الى العصر العباسي وبخاصة المخطوطات المصورة والخزف .

ولا نكاد نجد في الاثار العربية صورا كما في صور مخطوط مقامات الحريري من حيوية ولمحات تعبر عن شخصية الحجام ، ولعل رسوم الواسطي التي أوضحت مشاهد بالصور كانت أصدق تعبير وهي خير وثيقة مادية ساعدتنا في التعرف على الحجام وملابسه وادواته بطريقة لم تتمكن من تحقيقها عن طريق النصوص التاريخية والادبية التي جاء على ذكرها المؤرخون . ففي المقامة السابعة والاربعين[٥٣] من مقامات الحريري المؤرخة سنة ٦٣٤هـ يذكر الحارث فيها انه في أحد الايام أحس بحاجته الى حجام فبعث بغلامه ليأتيه به ، ولما تأخر الغلام ولم يأت بالحجام ذهب الى الحارث بنفسه اليه فشاهد حوله زحام كبير وامامه صبي قد تهيأ للحجامة ، وقد صور الواسطي هذه الحادثة في ثلاثة صور ، فالصورة الاولى (شكل ١) تمثل حانوتا الى جهة اليمين ممثلا في واجهة جلس عندها الحجام وقد مد رجله اليمنى الى الامام مشيرا اليها بيده اليسرى وكأنه يخاطب شخصا اخر ، واما الشخص المخاطب فهو يمثل غلام الحارث بينما وقف الى جانبه عدد من الرجال ، والى الجهة اليمنى من التصويرة نشاهد خزانة من أربعة أدراج صف عليها الحجام أدواته التي يستخدمها في الحجامة ويظهر المشرط واضحا من بين تلك الادوات والى جانب المشرط نلمح اداة اخرى تبدو انها القرز الذي يوضع فيه الدهن وفضلا عن آلات ومواد اخرى لا تظهر لنا واضحة في الصورة .

٥٢ـ البيهقي : ابراهيم بن محمد :
المحاسن والمساوىء ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ مطبعة النهضة (القاهرة ١٩٦١م) جـ١ ص٢٤١-٢٤٢ .

٥٣ـ الشريشي ـ المصدر السابق جـ ٤ ص٢٠٨ .

واحب قبل مغادرة هذا الحجام الى حجام اخر ان اشير الى مسألة جديرة بالاشارة وهي الملابس التي يرتديها هذا الحجام وتشير الصورة الى ان الملابس مؤلفة من عمامة ودراعة والعمامة التي فوق رأس الحجام ملفوفة بصورة متقاطعة تنسدل منها عذبة الى الخلف ، أما الدراعة فتظهر من النوع الفضفاض كما توحي بذلك الطيات الكثيرة التي تزينها .

والتصويرة الثانية (شكل ٢) التي يظهر فيها الحجام محفوظة هي الاخرى في المكتبة الاهلية في باريس ضمن مخطوط مقامات الحريري وتبرز لنا هذه الصورة التي تمتد عبر صفحين عملية الحجامة وما يستعين به الحجام في عمله ، وكذلك طريقة العمل عندما وقف ابو زيد السروجي يخاطب جمهورا من الناس قد احاطوا به وهو يشرح لهم سوء حاله مما اضطره ان يقبل على عملية حجامة لغلام كشف عن مظهره استعدادا للعملية والناس وقفوا ينظرون بين مستغربين ومشفقين لانه بذلك انما يريد ان يستدر عطفهم لانه يحجم غلاما فقيرا وانه بلغ به الحال من الفقر ان يحجم لاناس لا قدرة لهم على الدفع فهو بهذه الطريقة يحمل جمهور الحاضرين ليتبرعوا له بشيء مقابل عمله الانساني تجاه الغلام . ويتوسط الجمهور خزانة بدرجين صف عليهما مختلف وسائل وادوات المهنة ويبدو المحجم واضحا من بين هذه الادوات وكذلك الصندوق الذي تحفظ فيه تلك الادوات .

وترينا صورة ثالثة (شكل ٣) من نفس المقامة نموذجا اخر لعملية حجامة تجرى فعلا حيث كشف طفل عن ظهره وجلس ابو زيد السروجي يحجمه والناس يحلقون به ينظرون اليه وقد ظهرت الخزانة والادوات في صفين واضحة عليها ومن بينها مشرطان وقرز وبعض لفائف القماش ، قد تكون من الكتان والقطن وهي من ضرورات العمل .

ويظهر الحجام أو الفاصد لدينا في مثال اخر وارد على كسرة من الخزف (شكل ٤) يرجع تاريخها الى حوالي القرن السابع الهجري(١٣م) محفوظة في متحف برلين ، ترينا متخصصا في عملية فصد الدم وتبدو المريضة وهي سيدة وقد تحول رأسها بعيدا الى الجهة الاخرى حتى لا ترى الحجام وهو يؤدي ، اجراءات العملية وعلى العكس من ذلك نرى الى جانبها صبية تتطلع باهتمام الى عملية الحجامة .

ويرتدي الحجام ملابس مؤلفة من عمامة بطيات متعددة ذات اشرطة زخرفية تزين بعضها نقط صغيرة والبعض الاخر أشكال مؤلفة من مستطيلات أما ملابس البدن التي يرتديها الحجام فهي عبارة عن جبة ذات زخرفة هندسية .

وهكذا نخرج من هذه الرحلة العلمية بصورة واضحة المعالم بينة القسمات عن الحجام والفصاد ، وعن مهنة الحجامة ووسائلها وأدواتها عبر مرحلة مزدهرة من عصورنا الذهبية ، حيث كان العالم العربي الاسلامي مركز اشعاع لجميع العالم . وان هذه النماذج تمثل قدرة الامة التي استطاعت ان تحقق لها منهجا علميا وتضع نظاما خاصا لمهنة الحجامة في الطب . وارجو ان أكون قد وفقت الى جمع النماذج المتوفرة ومقارنتها بما ورد من اخبار عن هذه المهنة محاولا ان استعين بالنظرة العلمية موفقا بينها وبين ما ورد في كتب الادب والشعر عن مهنة الحجامة .

شـــکل (۱)

شـــکل (۲)

شـــکل (۳)

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

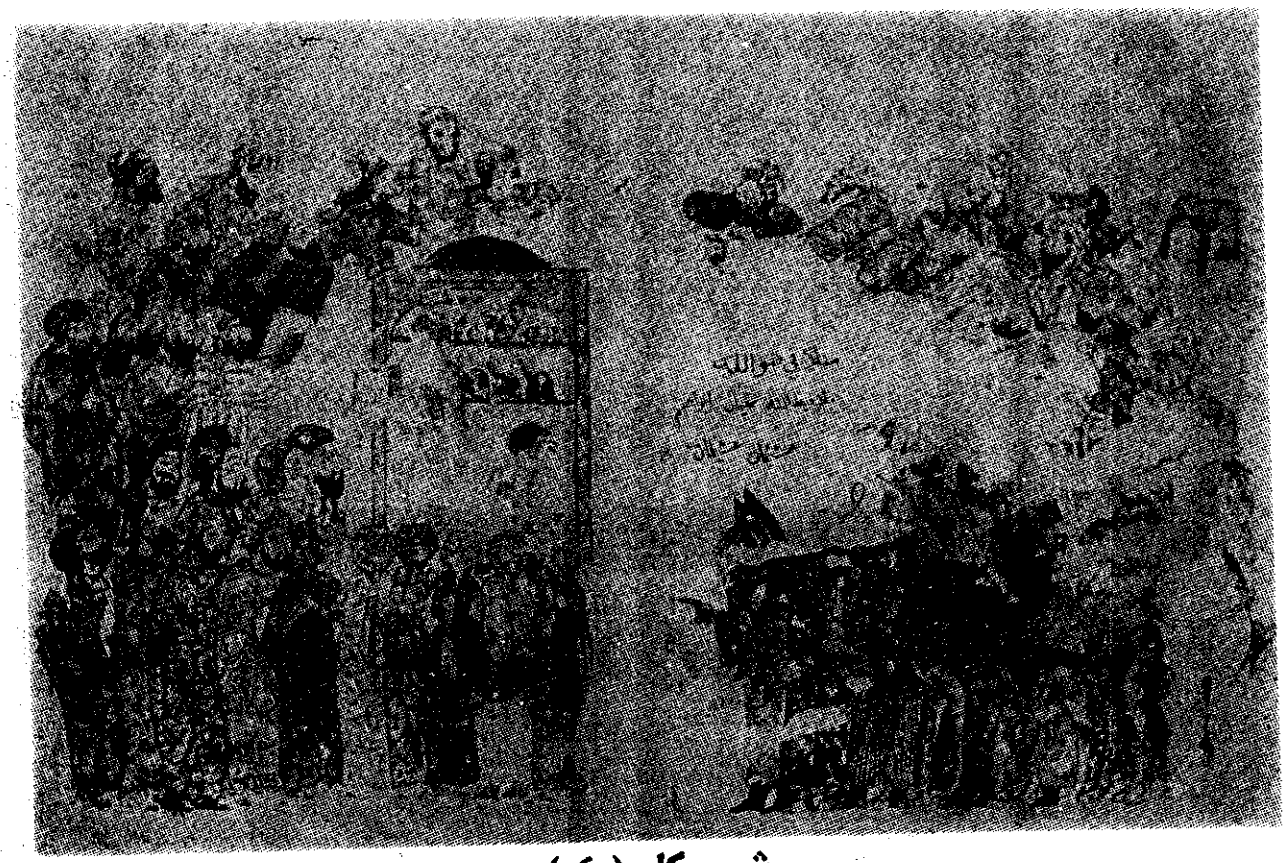

شـــکل (٤)

المصـــادر

ابن الاثير : أبو الحسن علي بن محمد الشيباني .

١ ـ الكامل في التاريخ .

اخوان الصفا .

٢ ـ رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء (بيروت ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م) .

الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الكاتب .

٣ ـ الاغاني . حققه لجنة مطبعة دار الكتب بالقاهرة (١٣٤٥ ـ ١٣٨١ هـ) مطبعة التقـدم .

ابن أبي اصيبعه : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي .

٤ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء . شرح وتحقيق الدكتور نزار رضـا منشورات مكتبة الحياة (بيروت ١٩٦٥م) .

البدري . عبداللطيف .

٥ ـ الفصد في الطب القديم مجلة المجمع العلمي العراقي .

البياتي . عـادل .

٦ ـ كتاب ايام العرب قبل الاسلام لابي عبيدة . مطبعد دار الجاحظ . (بغـداد ـ ١٩٧٦م) .

التوحيدي : أبو حيان .

٧ ـ الامتاع والمؤانسة . تحقيق أحمد امين واحمد الزين . مطبعـة لجنـة التأليف والنشر (القاهرة ـ ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م) .

الجاحظ : أبو عثمان عمر بن بحر .

٨ ـ رسائل الجاحظ : تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ م) .

خسرو . ناصر .

٩ ـ سفر نامه . ترجمة يحي الخشاب . ط٢ . دار الكتـاب الجـديد (بيروت ـ ١٩٧٠م) .

الدمشقي : أبو الفضل جعفر بن علي .

١٠ـ الاشارة الى محاسن التجارة . مطبعة المؤيد (دمشق ـ ١٣١٨هـ) .

الشريشي : أبي العباس احمد بن عبدالمؤمن القيسي .

١١ــ شرح مقامات الحريري . الطبعة الاولى (١٣٧٢هـ ــ ١٩٥٣م) .
الشيخلي : صباح ابراهيم سعيد .

١٢ــ الاصناف الاسلامية في العصر العباسي ، نشأتها وتطورها .
(منشورات وزارة الاعلام العراقية) .
الصابي . ابو الحسن (أو الحسين) الهلال بن المحسن .

١٣ــ رسوم دار الخلافة . تحقيق ميخائيل عواد . مطبعة العاني (بغداد ــ ١٣٨٣هـ /١٩٦٤م) .

١٤ــ الوزراء . تحقيق عبدالستار أحمد فراج . دار احياء الكتب العربية (١٩٥٨م) .
العبيدي . صلاح .

١٥ــ « الحمال » نماذج من صورة على الاثار العربية الاسلامية . مجلة كلية الاداب . جامعة بغداد . المجلد الاول (العدد ٢١ سنة ١٩٧٧م) ص ٥٢٥ ــ ٥٣٩ .
العسكري . ابي هلال العسكري .

١٦ــ كتاب التلخيص في معرفة اسماء الاشياء (جزءان) تحقيق الدكتور عزت حسن (دمشق ١٣٨٩هـ) مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
الغزالي . ابو حامد محمد بن محمد .

١٧ ــ احياء علوم الدين . مطبعة احمد البابي . (القاهرة ــ ١٢٩٦هـ)
ابن الفقيه . ابو بكر احمد بن محمد بن اسحاق الهمداني .

١٨ــ من كتاب البلدان . مخطوطة مصورة عن مخطوط مشهد . نشرها أوتار فار لامومينيج تكيتسيشفيلي . حول تاريخ مدينة بغداد
ابن القف . ابي الفرج بن موفق الدين يعقوب بن اسحق .

١٩ ــ العمدة في الجراحة . ط اولى حيدر اباد بالدكن .
ابن القفطي . جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف .

٢٠ــ تاريخ الحكماء . مكتبة المثنى بغداد . مؤسسة الخانجي .

٢١ ــ ابن منظور . جمال الدين محمد بن مكرم .

٢٢ ــ لسان العرب . دار صادر . دار بيروت (بيروت ١٩٥٦م ــ١٣٧٥هـ)
الهمداني : ابو الفضل احمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان .

٢٣ــ شرح مقامات بديع الزمان الهمداني . شرح محمد محي عبدالحميد . مطبعة المدني (القاهرة ــ ١٣١٨هـ ــ ١٩٦٢م) .